

قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ وعلاقتها بالبعد النفسي والبعد الميتافيزيقي

أ.زكية بجة

جامعة تيزي-وزو

- ملخص: انطلق الجاحظ في إصدار عبارته الشهيرة: المعاني مطروحة في الطريق من أرضية فكرية وفلسفية عميقة، متعلقة أساسا بالفكر المعتزلي الذي ينتمي إليه، وكذا الجو الثقافي العام في القرن الثالث الهجري المتسم بتأثير الفلسفة اليونانية، والرؤية المنطقية للأشياء في جو تعاضم فيه شأن العقل كمرجع للجدال والتفكير، وبرز فيه الطابع التجريدي والتقسيمات والتناظرات المنطقية في طرح القضايا، وضمن هذا الجو الفكري الشمولي نشأت فكرة الجاحظ حول العلاقة بين الألفاظ والمعاني، تلك القضية التي طُرحت فيما بعد على الأفهام بعيدا عن الإطار الذي نشأت فيه فخرجت عن المسار الذي وضعها فيه صاحبها، فما هي يا ترى ملاسبات هذه القضية بالعودة إلى كل متعلقاتها في مدونات الجاحظ؟ وما مدى صحة المقولة التي تنسب الجاحظ إلى تيار أنصار اللفظ؟ وهل حقا قلّل الجاحظ من قيمة المعاني؟ أم أنه قصد معنى آخر غير المعنى الذي تصرّح به البنية السطحية لعبارته الشهيرة؟ ولربما كانت عبارة المعاني المطروحة في الطريق تعبيراً مجازياً عن معنى خفي، لا يظهر إلا بتقصي البنية العميقة للعبارة، فما هو هذا المعنى إن وجد وما هي أدلته من كلام الجاحظ؟

- مقدمة: تُعدّ قضية اللفظ والمعنى من القضايا النقدية الكبرى، وهي أساس هام للعملية النقدية؛ لأنها تعالج بنية العمل الأدبي وصياغته الشكلية والمعنوية، وكما أن المنطلق في قضية اللفظ والمعنى هو التساؤل عن سر إعجاز القرآن: هل هو في

لفظه أم هو في معناه، كذلك جاء التساؤل في العمل الأدبي، هل تكمن ميزته في لفظه (أي في شكله) أم في معناه (أي في مضمونه)، ويعتبر الجاحظ أول بياني أثار هذه القضية وأدلى برأيه فيها بجرأة وفتح النقاش على مصراعيه حول هذا الموضوع بجوانبه المختلفة، فكان أول منبدأ النقاش في قضية اللفظ والمعنى¹.

1- الجاحظ بين تهمة الشكالية و موسوعية الطرح: كان نص "المعاني مطروحة في الطريق" المنطلق في إصدار الحكم بالشكالية على الجاحظ، واعتباره من أنصار اللفظ، وكان ذلك مدعما بسياق صدور تلك العبارة الشهيرة، حيث جاء رد الجاحظ رافضا لاستحسان أبي عمر الشيباني للمعنى، فذهب الجاحظ إلى رد هذا الاستحسان ورفضه من خلال رد الاعتبار للصياغة والسبك.

- النص: قال الجاحظ:

«لَا تَحْسِنَ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَى فَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالُ الرَّجَالِ
كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنْ ذَا أَفْطَعُ مِنْ ذَاكَ لِذَلِكَ السُّؤَالُ

وذهب الشيخ* إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير².

- المناقشة: نلاحظ أن الجاحظ يعتبر الأدب كتقنية للإنتاج الجمالي، مادتها الأولية هي اللفظ والمعنى، وذلك من خلال ربطه صناعة الشعر بصحة الطبع فنراه يقابل بين الشعر وفنون أخرى فهو يشبه الشعر بالنسج والصياغة، والرسم (التصوير)؛ وبإضافته لعنصر التصوير «يخرج بذلك الكلام من الخطية في بعدها الأحادي إلى التصوير ليشمل جميع الأبعاد التي تتألف منها الصورة... ليخلص إلى

الضمير الإنساني في بعده الباطني أي إلى المضمار كما يسميه ابن خلدون فيما بعد، ليدخل البعد النفسي في البيان³ أثناء تشكله وعند تلقّيه.

ثم إن الجاحظ بإعلانه لا محدودية المعانيفي مقابل محدودية الألفاظ لا يقصد الطعن في المعاني ولا إسقاطها؛ بل إن المتمتع في كلام الجاحظ عن المعاني المطروحة مع ربط الكلام بعبءه ببعض، يستنتج أنه من البعد عن هذا العقل المتذوق ذلك الفهم الوارد عن إسقاط قيمة المعاني؛ إذ الطرح هنا كناية عن لا محدودية المعاني، واتساعها لتشمل -كما سنرى فيما بعد- اللفظ والإشارة والعقد والخط والنسبة ضمن العالم الكبير الذي تمثله أخيراً النسبة في شكل موجودات الكون الدالة.

فالجاحظ إذن يقول بلا نهائية المعاني في مقابل محدودية الألفاظ، هذه الأخيرة التي ينصب عليها جهد الشاعر ليقيم بها الوزن، متخيراً إياها من حيث سهولة المخرج وسلاسة النطق، وكثرة الماء (أي الجريان والشفافية)، ومن حيث خروج هذه الألفاظ عن طبع لا عن تكلف، وفي صورة جيدة من حيث البناء اللغوي (أو السبك)، فإنه (أي الجاحظ) يبني فكرته هذه على أساس متين عن مفهومه للشعر بأنه صياغة فنية، وهو مثل النسج يتطلب سديين (أو نيرين) أحدهما عمودي والآخر أفقي⁴، ومثل الرسم يستلزم رؤية فنية ووجدانية وأدوات خاصة لتحقيقه وتجسيده؛ فإذا كان الرسم يتطلب لوحة وفرشاة وألواناً، فكذلك الشعر يستعمل الألفاظ ليرسم بها الصور المختلفة بألوان شتى من ألوان الحياة المتنوعة، فالبعد النفسي للقضية بتخير اللفظ وجودة السبك كجهد ذاتي يؤديه الشاعر هو السمة البارزة في طرح الجاحظ.

يرى الجاحظ أن المعاني ممتدة ولا نهائية، ولا بد للشاعر من بذل طاقة نفسية من ذاته المبدعة في سبيل اختيار الألفاظ والأوزان المناسبة لمعانيه المرغوبة، فكما

يجتهد السباك والنساج والرسام على الشاعر أيضا أن يبذل من فكره ونفسه الطاقة اللازمة لمواءمة الألفاظ مع المعاني.

إن يتضح أن الذي أراده الجاحظ هو إعطاء مفهوم الانفتاح والتمدد للمعاني عبر الزمن، هذا من جهة، ومن جهة ثانية أراد الجاحظ أن يقرر أهمية الأسلوب والصياغة اللغوية التي عليها ينصب جهد الشاعر في محاولته لمحاصرة تجربته الشعرية في الحياة، وصبها في قالبها المناسب. ولذا فإن الجاحظ يقرر بشكل ما «أن المعاناة الشخصية والحياتية هي قبل كل شيء مصدر الاستلهام الأدبي والفني⁵»، لذا كان البعد النفسي ضرورة ملحة لتحقيق البيان.

مما سبق، فإن الجاحظ لم يقلل من شأن المعاني كما فهم البعض، بل العكس هو الصحيح، «فما يقابل المعاني المطروحة في هذه النظرية ليست الألفاظ لأنها هي الأخرى معنية بالطرح والسقوط، وإنما يقابلها السبك والنسج والتصوير، يعني التركيب الذي هو تعريف اللغة في فهم اللسانيات اليوم⁶». وقبل أن رأى عبد القاهر الجرجاني أن الناس قد أساءوا فهم كلام الجاحظ، بجهلهم للمعاني التي قال إنها ملقاة على الطريق، وعدم إدراكهم لمفهومه حول اللفظ، فوجه رأى الجاحظ التوجيه الصحيح واللائق، بطرحه لقضية النظم.

ولا يخفى على الباحثين أن المادة المعروفة حول قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ، أنه كثيرا ما أُسيء فهمه من طرف كثير من النقاد في عبارة المعاني المطروحة، ولذلك «فإذا ما أريد معرفة أهمية اللفظ من المعنى في نظر أبي عثمان فليرجع إلى مظانّ بحثه حول البلاغة، ومتى يكون الكلام بليغا⁷»؛ حيث يقول الجاحظ في البيان والتبيين: «وقال بعضهم، وهو من أحسن ما اجتنبناه ودناه: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه. فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك⁸»، وما السبك الذي وظفه الجاحظ إلا تظافر اللفظ مع المعنى في إنتاج الدلالة اللغوية وتحصيل البلاغة البيانية.

إذنفالجاحظ لما أثار قضية الفصل بين اللفظ والمعنى كان بصدد الحديث عن أهمية الصياغة الشكلية في الشعر، أما «القاعدة الأولى والعامة لعلاقة اللفظ بالمعنى [عنده -] تقوم على مطابقة اللفظ للمعنى ومواتاتهما معا لمقتضيات الحال وظروف القول⁹» لتحقيق وظيفة اللغة الجمالية والتواصلية، ضمن سياق الحضور النفسي للصورة الشعرية.

وإذا كان الجاحظ قد فتح الباب أمام البلاغيين لينقسموا إلى معسكرين؛ معسكر اللفظيين الذين شكلوا تيارا وجه النشاط النقدي إلى الانحطاط نتيجة الاهتمام المفرط بزخرف اللفظ على حساب المعنى، في مقابل معسكر النظامين وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني، وإن كان الأمر كذلك فإن الجاحظ في حقيقة الأمر غير مسئول عن ذلك الصراع؛ فقد دام الجدل بين المعسكرين عشرة قرون، ابتداء من عصر الجاحظ، في القرن الثالث الهجري إلى غاية القرن الرابع عشر للهجرة وبالضبط في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي؛ حيث توج هذا الخلاف بـ «ظهور مجموعة ثالثة ترى أن الجاحظ لم يكن يعني إسقاط المعنى... ولكنه كان يتحدث، في ذلك المقتطف الشهير **(المعاني مطروحة...)** عن أن الألفاظ ليس لها معنى منفردة؛ بل تكتسب معناها داخل النسق اللغوي¹⁰»، مما يخرج الجاحظ من نطاق المسؤولية عن بداية الانحطاط.

إن قضية اللفظ والمعنى الواردة في سياق نظرية المعاني المطروحة عند الجاحظ لم تفهم الفهم الصحيح الذي يتناسب مع فكر الجاحظ الشمولي والموسوعي والذي كان سابقا لعصره في طرحه لمفاهيم ضمنية لم تتضح إلا بعد قرون كالشكلية (السبك)، والبعد النفسي (الصورة)، والأسلوبية (الصياغة).

2_ الوسائط التعبيرية في الدلالة على لانهاية المعاني: كما هو معلوم فإن أهم

مصطلح عند الجاحظ هو مصطلح البيان؛ لأنه نعمة حبا الله بها العرب وتتأسس

أهميته الكبرى في إظهار إعجاز القرآن الكريم، وحسن تلقيه وسر تمكنه في العقول والقلوب. و يعود الفضل للجاحظ في بلورة مناحي علم البيان وأبعاده فإذا كان البيان هو «الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي»¹¹، فما هي الوسائط التعبيرية في بيان هذه الدلالة ؟

- **النص:** يقول الجاحظ: «ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بيانا، وجعل البيان على أربعة أقسام لفظ وخط وعقد وإشارة، وجعل بيان الذي لا يستدل (أي النصب أو الحال) تمكنه المستدل نفسه»¹².

- **المناقشة:** إذا كان اللفظ هو الكلام المنطوق، والخط هو الكلام المكتوب والإشارة تكون باليد والعين وما شابه ذلك، والعقد هو الحساب، فالنصب «هي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن،... فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان»¹³، تلك هي أصناف الدلالات الخمس عند الجاحظ.

فالنصب تختلف عن الدلالات الأخرى، لكونها علامة لغوية خاصة، فهي لا تتشكل من دال ومدلول، بل هي مدلول فقط، وهي المعاني اللامحدودة، إنها الوجود كله بما فيه من كائنات ناطقة وصامتة، نامية وجامدة.

وبهذا الاتساع «تتحول النصب من وظيفتها الدلالية في التعبير إلى وظيفة ميتافيزيقية»¹⁴؛ حيث إنها هي السموات والأرض، والجبال والبحار، وهي كل ما هو ظاهر أو خفي، وهي الأرواح الخفية، وهي الأبدان قبل أن تنفخ فيها الأرواح، أو هي الخلق الذي لم يخلقه الله سدى، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ

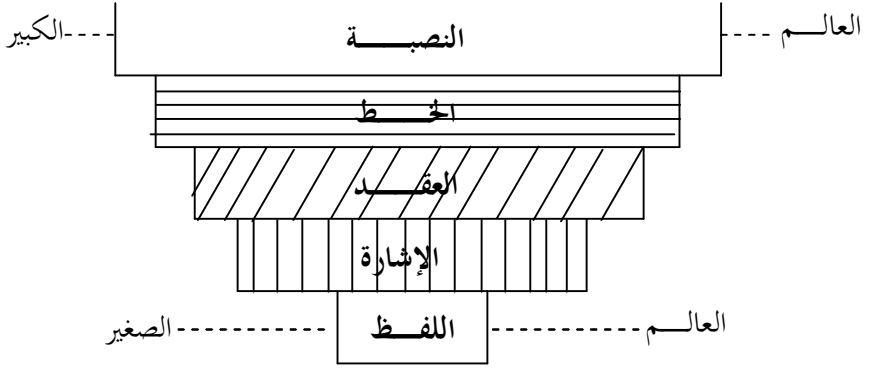
الله عَزَّوَجَلَّ»¹⁵، وهي «في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وإنما يريد [بها] النعم والأعاجيب والصفات وما أشبه ذلك»¹⁶ من صنع بدیع وتدبير حكيم، إنها الوجود كله بما هو كائن وما يمكن أن يكون.

وبديهي أن هذه النظرة حول سعة الدلالات وتعدد أنواعها هي ما حدا بالجاحظ أن يقرر لا نهائية المعاني في قوله: «المعاني مطروحة في الطريق»، كما أن مفهوم النسبة السابق يفسح المجال للتأويل حول قضية الفكر واللغة، وأيهما أسبق حيث يدل كلام الجاحظ عن النسبة أن التفكير «هو الذي يبني من هذه اللغة النسيج الأدبي الذي نطلق عليه الكتابة»¹⁷ الأدبية، بمعنى أن الفكرة تكون سابقة عن التشكيل اللغوي، ما يحيل على أن المعنى سابق للتشكيل اللغوي أيضا.

وبالمقابل فإنه من الاستحالة احتمال وجود تشكيل لغوي لم تسبقه فكرة؛ لأن اشتغال «اللغة وحدها منعزلة عن التفكير أمر لا يعني إلا إنكار وظيفة العقل البشري ومحاولة تعطيلها»¹⁸، في حين أن الجاحظ يرى أن الكون كله بما فيه هو مساحة معاني مبسطة أمام العقل عن طريق البيان؛ فالنسبة أسبق من البيان وبالتالي فالفكر أو المعنى أسبق عند الجاحظ من اللغة أو اللفظ، و«الاسم متأخر على المعنى رتبة، والمعنى متقدم على الاسم، فلا يمكن تسمية الشيء حتى يتعين معناه، وإلا فلعو وغلط»¹⁹.

وهذه المستويات الخمس (اللفظ، والخط، والعقد، والإشارة، والنسبة) الممتدة في الوجود، تمثل الوسائط التعبيرية التي تكشف عن المعاني الخفية وتحقق البيان يقول الجاحظ في البيان والتبيين: «والدلالات هي التي تكشف عن المعاني في الجملة... وعما يكون منها لغوا بهرجا وساقطا مطرحا»²⁰. وما الدلالة باللفظ إلا أصغر شكل دلالي يتسم بالخطية، في مقابل النسبة التي تمثل أكبر شكل دلالي

يتسم بالزئبقية والحلولية في الوجود والكون، ما يؤكد ضرورة حمل نص المعاني المطروحة على الطريق على «معنى اللانهاية، لا على معنى الاحتقار وعدم المبالاة بالمعاني؛ لأن المعاني المطروحة في الطريق في هذه النظرية هي جميع الكائنات التي تملأ الفضاء وتعمره²¹»؛ إنها العالم الكبير، بينما يمثل اللفظ العالم الصغير، والشكل التالي يوضح ذلك²²:



شكل 1- لا محدودية المعاني (العالم الكبير) في مقابل محدودية الألفاظ (العالم الصغير)

نلاحظ في الشكل أعلاه أن الجاحظ يصنف أقسام البيان في نظام طبقات متسلسل؛ حيث إن «كل طبقة تتحد من سالفها وتلخصها، فهي هي لكنها ليست هي؛ لأنها وإن كانت صورة مصغرة منها فقد فقدت بانحدارها شيئاً من خصائص الأولى²³»، في علاقة توالدية تنتج فيها الأجزاء من الكل.

وهذا التدرج ناتج عن فكرة العالم الصغير سليل العالم الكبير؛ فالجاحظ «كان بلا شك يرى في تطور الطبقات صورة لمراحل تطور حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة²⁴»؛ حيث يقول على لسان الحسن البصري: «... أمتكم آخر الأمم وأنتم

آخر أمتكم... أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بأخركم...»²⁵.

فنتقسم الجاحظ للدلالات على هذا الشكل ناتج عن فكر معتزلي ثاقب، وفكرة دينية وفلسفية خاصة تجاه الكون؛ حيث إن النصبه هي كل المخلوقات، والخط مشتق من المعنى الميتافيزيقي لخط الوحي المنزل، واللوح المحفوظ، والعقد هو النظرة الناتجة عن إعمال العقل في العد والحساب، والإشارة محلها الإلهام القلبي واللفظ مشتق بداية من منطوق الوحي.

إذن يمكن القول بأن خاصية البعد الميتافيزيقي تتسحب على أصناف الدلالات المختلفة، ف «الجاحظ يعطي لنظام المنازل معنيين معنى لسانيا ومعنى ميتافيزيقيا»²⁶، والجدول التالي يبين ذلك:

الدلالة	معناها الميتافيزيقي	معناها اللساني
النصبه	الكائنات كلها (العالم الكبير).	المعاني.
الخط	الوحي المنزل، اللوح المحفوظ، (روح النصبه).	حروف مكتوبة (الحبر).
العقد	الحساب (العقل).	التكرار.
الإشارة	الوحي والإلهام (محل القلب).	حركة دالة على معنى (رمز).
اللفظ	شكل المعنى (العالم الصغير)	المنطوق (الصوت).

- جدول يمثل الطابع الميتافيزيقي لقضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ

3- المجاز خلق مسافة تباعد بين اللفظ والمعنى، وخلق مجال تأويل بين النص والمتلقي: من القضايا الهامة التي عني بها علم البيان العربي، قضية المجاز،

يقول عبد العزيز حمودة: «ثم إن اللغة العربية كانت من أكثر لغات البشر انشغالا بالبيان، وخاصة فيما يتعلق بكل قضايا المجاز»²⁷، ومختلف أشكال ومزايا استخدام اللفظ لا على الحقيقة، وتبع مفهوم التأويل مفهوم المجاز في درجة اهتمام النقاد.

- **النص:** تطرق الجاحظ إلى قضية المجاز في إطار العلاقة بين اللفظ والمعنى، فعند تعرضه لآية ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾²⁸، قال: «العسل ليس بشراب وإنما هو شيء يحول بالماء شرابا... فسماه كما ترى شرابا إذ كان يجيء منه الشراب»²⁹.

- **المنافشة:** الجاحظ يفسر تسمية العسل بالشراب، رغم كونه ليس شرابا بوجود قرينة معنوية، تتمثل في تحول العسل إلى شراب بالماء، فجاز تسميته الشراب على سبيل المجاز لا الحقيقة.

والمجاز هو ظاهرة لسانية واقعة في كلام العرب كما في القرآن الكريم، يقول محمد الصغير بناني: «والابتعاد عن المعنى الملفوظ هو محور القضية في باب المجاز كما هو معلوم»³⁰؛ حيث يطلق المتكلم لفظا ويريد معنى غير معنى ذلك اللفظ لعلاقة بين المعنى الوارد والمعنى المراد، كما في المثال السابق؛ حيث المعنى الوارد هو الشراب، في حين المقصود ليس شرابا بل هو العسل.

وإذا كانت الصياغة تتطلب مشاكل بين الألفاظ والمعاني، وتوفيقا بينهما، فإن الحديث عن المجاز «يساهم في تصور الفصل بينهما واستقلال كل منهما عن الآخر»³¹ خاصة إذا كان المعنى الوارد في القرآن يتعارض وعقائد الاعتزال، أو يخالف أصلا من أصول العدل والتوحيد.

فالمجاز نشأ أول ما نشأ للدفاع عن العقيدة الإسلامية، وتأويل الآيات التي ظهر فيها تعارض مع أصول التوحيد كـ «القول بالمجاز في الصفات الإلهية [الذي]

يتضمن أن الله لم يتصف بهذه الصفات حقيقة، وإنما وصف بها [نفسه] على سبيل المجاز...³²».

كذلك يعد المجاز وسيلة فنية لإثراء اللغة، وتحقيق لذة التذوق الأدبي، بفضل اكتشاف معنى بعيد ليس هو المعنى الأول ولا المعنى الثاني في الحقيقة؛ لأن التعريف الأدق للمجاز أنه «المعنى الجديد الناشئ عن انصهار المعنى الأول والثاني، والذي يحدث بذبذبته وتردده بين المعنيين دغدغة النفس وهي أساس الطرب الجمالي...³³»، فالمعنى الجديد شبيه بنتيجة تفاعل كيميائي؛ حيث هو نتيجة العلاقة بين المعنيين معا متضافرين ومتعاضدين معا.

ومن ثم فالمجاز هو خلق مسافة بين اللفظ والمعنى؛ إنه «صورة زائدة لتقديم المعاني والمواقف تقديمًا مؤثرا في نفوس السامعين³⁴»، ولا يكون ذلك إلا بقطع تلك المسافة للوصول إلى المعنى الحقيقي والعلاقات البعيدة، ولا يتأتى ذلك إلا بعملية التأويل لأن: «المعاني مطروحة في الطريق...»، لا متناهية، وبذلك يكون الجاحظ قد تنبه إلى «ميزة التأويل والحاجة إليه، وإن لم يسمه باسمه الصريح في هذا الموضع³⁵».

ولا تخفى العلاقة الوثيقة بين التوظيف المجازي للغة والتأويل، فـ «ما يمنح التأويل دفقا حيويا فاعلا ومؤثرا في مجمل عملية التلقي الأدبي هو المجاز³⁶» والنص الجيد دائما هو النص الذي يمنح مساحة أكبر للتأويل الدلالي؛ لأنه يعطي بذلك مساحة أكبر لذوق القارئ وحساسيته الفنية، بجعله عنصرا أساسيا وفاعلا في إنتاج المعنى.

4- المشاكل بين الألفاظ والمعاني: سبق وأن رأينا أن «القاعدة الأولى والعامّة

لعلاقة اللفظ بالمعنى [عند الجاحظ] تقوم على مطابقة اللفظ للمعنى ومواتاتهما معا لمقتضيات الحال وظروف القول³⁷» قصد تحقيق الوظيفة الجمالية والتواصلية للغة

التي يسميها الجاحظ "البيان"، فكل خلل في علاقة اللفظ بالمعنى يؤدي إلى تعطل في البيان، وقصور في البلاغة، وبالتالي فشل الوظيفة اللغوية.

- **النص:** يقول الجاحظ: «إنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها... وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها»³⁸.

- **المناقشة:** نستنتج من قول الجاحظ أعلاه، جملة من النتائج الظاهرة والضمنية، تلخص في مجملها قضية (لكل مقام مقال) التي هي أولى ركائز نظرية البلاغة عند الجاحظ، والتي مدارها «على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم»³⁹، ولا يتأتى ذلك إلا باتباع نظام خاص في علاقة اللفظ بالمعنى، والتي نوجزها -تبعا للقول أعلاه- في النقاط التالية:

أولا- تأتي الألفاظ تالية للمعاني؛ حيث المعاني كانت موجودة سلفا، والألفاظ إنما تأتي لتشكل أجساد المعاني التي هي بمثابة الأرواح؛ إذ أنه من غير الممكن تسمية الشيء قبل أن يتحدد معناه «وإلا فلغو وغلط كالوعاء الفارغ من أي شيء فالاسم بمثابة البدن والمعنى بمثابة الروح، فالألفاظ أبدان للمعاني، والمعاني أرواح للألفاظ»⁴⁰، وبديهي أن يماثل الجسد روحه.

ثانيا- وجوب توفر عنصر المشكلة الكمية؛ حيث يجب أن يقابل كثير المعاني بكثير الألفاظ، وكذا تقابل قلة المعاني، بقلة الألفاظ، لتحقيق التوازن الكمي بين الأجساد والأرواح. كون أن المعاني المتعددة إذا ما عُبر عنها بألفاظ وجيز فقإنها تبقى غامضة وناقصة، والخلل نفسه يحدث في حالة ما إذا تم التعبير بألفاظ كثيرة عن معانٍ قليلة حيث يفقد المعنى الأساسي وجهته البيانية، وقد يكتسب معاني أخرى غريبة عنه تجعله غامضا ومشوشا.

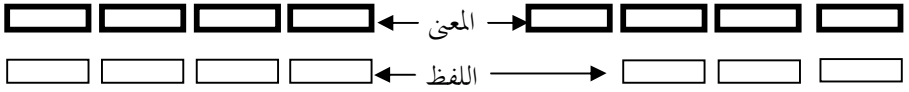
ثالثا- وجوب توفر عنصر المشكلة النوعية، فإذا كان المعنى المراد شريفا وجب توظيف الألفاظ الشريفة، والعكس إذا كان المعنى سخيفا وجب توظيف

الألفاظ السخيفة؛ لأن توظيف السخيف للشريف، أو إصاق الشريف من الألفاظ بالمعاني السخيفة، من الأمور المخلة بوظيفة البلاغة والإفهام، كما أنها تخل بالوظيفة الجمالية والدلالية للغة.

رابعا- على اعتبار اعتراف الجاحظ بوجود المجاز في البيان العربي، وبالتالي وجود حالات تكون فيها المسافة بعيدة بين اللفظ والمعنى، فإنه يمكن تصنيف المشكلة عند الجاحظ إلى نوعين:

أولاً: - **مشكلة المطابقة:** يكون فيها اللفظ مطابقا تماما للمعنى.

ثانياً: - **مشكلة اللامطابقة:** ويكون فيها اللفظ مختصرا، والمعنى ممتدا والرسم التخطيطي التالي يوضح ذلك ⁴¹:



مشكلة المطابقة

مشكلة اللامطابقة

شكل -2- المشكلة بين اللفظ والمعنى

- **خاتمة:** بعد هذا العرض حول قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ نخلص إلى القول بأن الجاحظ يمثل فكرا موسوعيا ممتدا لا مجال لفهمه إلا بالاشتغال العام والشمولي على كل مدوناته، وإن اقتناص عبارة أو نص مجزوء لا يفي بغرض البيان والفهم، هذا من جهة أولى ومن جهة ثانية فإن فكر الجاحظ لا يمكن أن يتم استيعابه إلا ضمن الإطار العام للمنظومة الفكرية والفلسفية التي صدر عنه، وهو الفكر المعتزلي المستند على الأبعاد الميتافيزيقية، والرؤية الكلية للكون والحياة ضمن أوليات العقل ومسلمات المنطق.

- الهوامش:

- 1- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001م، ص 273.
- *- الشيخ هو أبو عمر الشيباني.
- 2- الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، ط3، 1388هـ / 1969م، ج 3، ص132.
- 3- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، سلسلة أهل الحكمة، دار الحكمة، الجزائر، 2001م، ص 24.
- 4 - محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م. ص314.
- 5- ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط1981م، ص167.
- 6- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص 141.
- 7- مجمد جمعة بادي وعباس عطية علي، اللفظ والمعنى عند الجاحظ، مجلة القافلة، شركة أرامكو، السعودية، مج 43، ع 10، ص 18.
- 8- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط2، 2000 ج1، ص 78. (أما بقية المواضع، فقد استخدمت في جميعها طبعة عبد السلام محمد هارون).
- 9- ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط1981م، ص168.
- 10- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص 270.
- 11- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 75.
- 12- الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 33.
- 13- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 81.
- 14- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص 78.
- 15- سورة لقمان، الآية 27.
- 16- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص 78.

- 17- عبد الملك مرتاض، اللغة والمعنى، مجلة القافلة، مج 44، ع 7، شركة أرامكو السعودية رجب 1416هـ/ نوفمبر، ديسمبر 1995م، ص 19.
- 18- المرجع نفسه، ص ذاتها.
- 19- المرجع نفسه، ص ذاتها.
- 20- الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 76.
- 21- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص 89.
- 22- المرجع نفسه، ص 92.
- 23- المرجع نفسه، ص ذاتها.
- 24- المرجع نفسه، ص 93.
- 25- المرجع نفسه، ص ذاتها.
- 26- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ ، ص93.
- 27- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص 288.
- 28- سورة النحل، الآية 69.
- 29- الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 425.
- 30- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص 280.
- 31- وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1985م، ص 393.
- 32- الجليلي، ابن تيمية وموقفه من التأويل، منشورات المكتبة العصرية، لبنان، ص 431. ضمن: عمار جبدل، مدخل إلى دراسة الفرق الإسلامية، سلسلة دراسات الفرق الإسلامية، دار البلاغ الجزائر، ط1، 2002م، ص 135.
- 33- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص 282.
- 34- وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، ص 393.
- 35- محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1999م، ص 221.
- 36- المرجع نفسه، ص 220.
- 37- ميشال عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ص 168.

- 38 - الجاحظ، الحيوان، ج2، ص476.
- 39 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص93.
- 40 - محمد جمعة بادي، وعباس عطية علي، اللفظ والمعنى عند الجاحظ، مجلة القافلة، شركة أرامكو، السعودية، مج43، ع10، ص18.
- 41 - محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص157.